الدكتور محمد جمال طحّان

الحاضر غائباً

مقولة

الحاضر غائباً

تأملات في الزمان

الدكتور محمد جمال طحّان

مقولة

الحاضر غائباً

*** تأملات في الزمان ***

*** د. محمد جمال طحّان ***

دار بترا – دمشق

الطبعة الثالثة ٢٠٠٩

الأولى ٢٠٠٠

الإهـــداء

إلى كلِّ الذين ...

ينفلت الزّمان...

من بين أصابعهم...

ويكتفون...

بالاندهاش...

مقدّمة

حين نقوم بجولة حول العالم، تدهشنا ناطحات السحاب في أمريكا، والأنفاق الفخمة في روسيا، وسور الصين العظيم، والأهرامات في مصر، وقلعة حلب.

وإذا أتيحت لنا فسحة من التأمّل خلال تلك الجولة، نفكّر: كم من الوقت استغرق ذلك كلّه ؟

ولو أنّ الإنسان، قبل أن يقوم بأيٍّ من تلك الأعمال، فكّر بالوقت اللازم لإنجازها، لأُصيب بالإحباط قبل أن يصنع ماصنع .

إنّ النّاس عندما يقومون بعمل ما، لايفكّرون بالزّمان، وإنّما يعملون فيه.

والزّمان لايشكّل موضوعاً رئيساً لدى الإنسان إلاّ بعد تجاوزه الأربعين، وشعوره بالانكسار.

حينذاك، يتأزّم من أقلّ صدمة يواجهها في الواقع، فنراه يفكّر بوطأة الزّمان.

إنّه يعيش لحظة الصدمة التي تفتح جراحه على ماضٍ طويل، عانى فيه من خيبات متتالية، تستدعي إلى الذّاكرة تاريخاً طويلاً من الآلام، ومن الصراع العنيف مع الحياة، عبر زمان يبدو مُغرِقاً في القِدَم، للإنسان الحزين.

فإذا كان الكهل متفائلاً، يحاول الهروب من ماضيه المخيف، فيصفعه مستقبل يبدو ذا مساحة ضئيلة، وبالتّالي يوشك صاحبه أن يقتنع بانعدام الإمكانات التي يمكن أن تعيد التوازن إلى من أنهكته الحياة.

وتزداد المرارة لدى من يعتقد بأنّ انحلال الجسد نهاية المطاف، ولا جدوى من تحمّل أمراض الشيخوخة، فيتعمّق إحساسه بعبثيّة الحياة، مما قد يدفعه إلى الانتحار تحت وطأة ثقل الزّمان – الذي يبدو، مع الألم، بغير حدود (Unlimited) فيعمد إلى قتله بالطريقة الوحيدة الممكنة: الانتحار... ذلك الفعل الذي يُعدم الزّمان الذّاتي في صاحبه.

وإذا كان الموت موضوع قلق أساسي لدى من يفكّر بالانتحار، وقاوم الفكرة، فإنّه يزجّ بنفسه في حالة جحيميّة لاتنتهي، لأنّه يجزع من الموت الّذي يراه شيئاً يَحيل (الذّات) إلى (عدم) .

أمّا المؤمن الذي يعتقد بالبعث أو بخلود الروح أو بالتقمّص، فإنّه يتفاءل بالمستقبل، عن طريق الموت الذي يعدّه الجسر إلى الأبديّة، به يعبر أدرانه إلى عالم ترفرف الرّوح فيه من غير ألم. وهناك يكتسب استمراراً آخر عبر زمان لاينتهي، أو عبر زمان يكتسب تجدّده باستمرار.

وهذا هو الفرق الجوهري بين المؤمن بالبعث والملحد، كلٌّ منهما يعلم أنّه طارئ على الحياة، ولكنّ الثّاني يعتقد بأنّ روحه تفنى بفناء الجسد، والأوّل يثق بقدرته على التحلّي بالفضيلة استعداداً للتخلّص من أعباء الجسد، لينتقل من زمن تؤطّره الأيّام والسنون، إلى زمن مطلق لانهاية له... أي إلى زمن يفتقر إلى زمانيّته الدنيويّة بعد أن أُتيح له الدخول في عالم الأبديّة(Eternity) ؛ في انتظار ذلك، يحاول الإنسان تطوير مستوى حياته عبر الزمان.

تجلّيات الزّمان :

ولكن، ما الزّمان ؟

هل هو فكرة مجرّدة لاتجسيد لها، أم أنّه مقولة تساعد على تعيين المكان، أو على قياس الحركة؟ وهل هو (كم) يقبل القسمة والتجزيء لذاته أو لسواه، أم هو (كيف) لايتوقّف تصوّره على تصوّر غيره؟

وهل يقتصر معنى الزمان على تعيين وقت الحدث؟ وهل يمكن الفصل، فيه، بين بُعدَيه الماضي والمستقبل، أم أنّ بينهما تأثيراً متبادلاً لابدّ منه، وإلى أيّ مدى ؟

يلوح لنا أنّ السؤال الأهمّ – هنا – هل تستدعي كلمة (الزّمان) فكرة موحّدة محدّدة إلى الذهن عندما ترد إليه، أم أنّ للزّمان مستويات متعدّدة، وأبعاداً مختلفة، تتنوّع تبَعاً لحالة الّذي يفكّر فيه ؟

عندما يُحكم على مظلوم، ويُبرّأ جانٍ، يلعن النّاس الزّمان. وإذا رأينا معمّراً تحتويه كلّ أمراض الدنيا ولم يعد يقوى على الحركة، نقول: لقد عفا عليه الزّمان.

وقد نسمع عبارات متنوّعة، في أوقات مختلفة، تضمّ كلمة الزمان، لكنّها لاتعطي دائماً معنى واحداً لها، كأن نقول: (زمان الحب – الزّمان الضائع – زمان الحرب – زمان الشدّة – الصّباح – منذ أعوام – ولّى زمانه – زمان الطفولة) .

والزّمان هنا، كما يتّضح من العبارات السابقة، يحمل معانٍ مختلفة، فهناك الوقت، والتاريخ، ومرحلة سياسية، وتوقيت طبيعي، وزمن ذاتي، ومرحلة في حياة الإنسان...

كذلك حين نقول عن المتخلّف : إنسان تجاوزه الزمان. هل نعني ذلك حرفيّاً، بمعنى أنّه والزمان في سباق (ماراتوني)، استطاع الزمان أن يصل قبله إلى خطّ النهاية، أم أنّها عبارة تحمل كناية تدلّ على التخلّف أو التقدّم ؟

من ذلك يتّضح أنّ للزمان تجلّيات تتحدّد من خلال الزاوية التي ننظر منها إليه، وبحسب الموضوع الذي نفكّر فيه.

فهناك الزمان الموضوعي العام، وزمني الشعوري الشخصي. الأوّل، خارجي، أقيس حركتي به، بوصفه مقياساً منتظماً يتميّز

بثبات انتظامه. بينما يكون زمني الخاص متوتّراً متبدّلاً يتكيّف بحسب شعوري الشخصي، إنّه الزمان المعيش.

ولكن، هل يقتصر الزمان على نوعين أو درجتين؟ بل إنه يتفرّع إلى أكثر من ذلك بكثير لدى الإنسان الذي يفكّر فيه :

١- الزّمان الذاتي المعيش , (Lived time) وهو ذو دلالة فردية خاصة، يرتبط - بشكل ما - بالزمن الاجتماعي الجماعي الذي يخصّ فئة ما، أو أمة تتواضع عليه وتعيش في إطاره. وهو يرتبط بالشعور، ويقف بالنّسبة إلى الميت.

٢- الزّمان الموضوعي (Objective time) الإنساني العام، بحسب توقيتنا الحالي وفكرتنا العامة عنه... وهو يدخل وعينا بالتعلّم عبر ذاته، أي عبر الزمان. ويتعلّق بمعلوماتنا عن الكرة الأرضية وحركتها المرتبطة بالكواكب والمجرّات المحيطة. وهو زمن ثابت الاطّراد: ماضٍ، ومستقبل يتحوّل إلى ماضٍ باستمرار... وفكرتنا الأساسيّة عنه نابعة من حاجات الإنسان ودوافه وحركته الجسمانيّة الّتي تجسّد حركة الزمان فيه. ويرتبط بأمور هي في نطاق خبرتنا. ومنه ينبثق الزّمان الطبيعي / الايكولوجي: الصباح... الظهيرة... الليل...، كما ينبثق منه الزمان البيولوجي ومراحل الطفولة والشباب والكهولة...

٣- الزّمان الكوني (Cosmic time) الذي يتميّز بحركة ذاتيّة، وهو ذو طبيعة خاصّة لاتتعلّق بسواه، ويسير دائماً إلى الأمام بشكل انسيابي عبر لحظات متتالية (Respective instants) وهو يرتبط بأمور تتجاوز نطاق خبرتنا، وإن تكن في حدود تصوّراتنا .

٤- الزّمان المطلق (Absolute time) الذي لانعرف عنه شيئاً وهو ماسمّاه (نيوتن) (Newton) بالديمومة. ولا يمكن أن نتصوّره محدوداً بزمان أو مكان، لأنّه زمان فوق إنساني. يخرج عن نطاق منطقنا وأدواتنا المعرفية. وبكلمات أخرى يمكن أن نقول إنّه الأبديّة التي تتجاوز نطاق تفكيرنا وإدراكنا وخيالنا .

وإذا كنا نوافق (هنري برغسون) بأنّ العقل ينفر من كل شيء سيّال، سنكتفي بالحديث عن الزمان الموضوعي الإنساني الذي نزعم أنّه كمّ متّصل لايملك جوهراً ذاتياً محضاً، وإنّما نتصوّره في الذّهن من خلال الحركة، فنعدّه وسطاً تجري فيه الحوادث، ونرتّبها بالقياس إليه، من خلال افتراضه مقداراً للحركة التي يشترك معها بعدم قابلية الانقسام، ولهذا فهو تغيّر متّصل لايمكن تجزيئه إلى آنات منفصلة. وهو بالنسبة للحركة في المكان، كالفكر بالنسبة إلى العقل في الإنسان. وإذا كان المكان يتميّز بثلاثة أبعاد (الطول والعرض والعمق)، يحمل الزمان بعداً واحداً (الامتداد).

وإذا كان الزمان مجرّد ترتيب لوقت الأحداث بحيث يشكّل (كمّ) الحركة التي تتّجه لتصبّ في الماضي، يكون التفكير ي الماضي سفراً ذهنيّاً للتأمّل في الحدث، كما يكون تصوّر المستقبل سفراً لتوقّع حدث ما ، عبر كثافة زمانيّة تشبه الأحلام.

أي إنّ الحدث بالنّسبة غلينا يكون إمّا في مكان ماض، أو في مكان مستقبلي من الزّمان.

ولهذا المكان الزماني دلالة خاصة تؤكّد ارتباط الزّمان بالمكان، فلا يوجد زمان في لامكان، كما لايوجد مكان في لازمان.

فالزّمان الّذي نتحدّث عنه ويكون ذا معنًى لنا، هو الزمان الموضوعي الإنساني، والذي لايمكننا تصوّره إلاّ متغيراً، كالمكان، ولكنَّ – آنه – كوجوده، افتراضية، تماماً كما نفترض وجود نقاط متتالية في المستقيم.

وكي يشكّل الزمان مقياساً عاماً –كما هو في أذهاننا–، لانستطيع أن نربطه بذواتنا الخاصّة حتى لايتحوّل إلى زمان وجودي، كالشّعور، لايصلح إلاّ لصاحبه.

فالزّمان، بمعناه العام، مفهوم مجرّد لوجود خارجي... مفصول... وجوده (المفترَض) ليس مشروطاً بوجودي، من النّاحية

الموضوعيّة وعلى مستوى التجريد. وعقلي يبقى بعيداً عن الزّمان وبمعزل عنه حين لاأكون في حالة إدراك له (الآن).

والمفارقة – هنا – أنّني حين أفكّر (الآن) في الزّمان، أكون خارج حدّيه (الماضي– المستقبل)، أي إنّني لاأستطيع التفكير في الزمان حين أكون فيه، ولا بد أن أتجرّد منه– في الآن الذي أفكر فيه به.

أمّا حين أدرك (أنا) الزمان، يصبح هو إدراكي به، ولا يمكن أن يكون وجوده منفصلاً عني حين أعيه، فـ (أنا) أعيـ(ـه) و أدركـ(ـه) من غير أن أكون محدوداً به لحظة الإدراك، وإنّما أغدو متماهياً (Quiddity) معه.

حين أفكّر في الزّمان، فإنّني، لكي تتمّ العمليّة، لابدّ أن (أضايفه) إليّ، هنا أعبر الفجوة عبوراً علائقيّاً من أجل أن يتمّ الوصال، وكي أجعله يسري بي، وأعي سريانه في نفسي، من غير أن نكون شيئين متباعدَين أو متخالفَين. وحينها لايكون هو ذام عنى لي بعيداً عني، ولا يكون وجودي متحقّقاً من دونه.

وفي الواقع، إن مايهمّنا، هو موقعنا نحن من الزمان، لاموقع الزمان منّا، ولا الزمان المطلق الذي لايمكننا إدراك ماهيّته.

نحن مكومون بالزّمان، نحاول فيه.. ونكبر .. ونشيخ.. وأحكامنا تتغيّر بتغيّره، ويتبدّل فهمنا للقيم من خلاله. ومن هنا

تتعاظم أهميّته لدينا .. إنّنا بحاجة إلى استيعابه ووعيه. في حين أنّ جريانه الموضوعي، بمعناه العام، يبقى مستمرّاً بصرف النَظر عن رأينا فيه، لأنّه لايحتاجنا إلاّ في صبغته الذاتيّة أو بمنحاه الخاص في حياتنا وفي تفكيرنا فيه.

إنّ حركة الأشياء في العالم لاتؤثّر على سيول الزّمان. فنحن ننام، لكنّ الزمان لايقف، كما يشير إلى ذلك (اسحق بارو Isac Barrow) .. الحركة قد تقف في الأشياء بشكل نسبي، لكنّ الزمان لايقف.. الزّمان متحرّك .. وحركته مستمرّة بسرعة ثابتة نسبيّاً، أمّا زمان الحركة فهو متغيّر تَبَعاً لسرعتها .. وهي غير مستمرّة إلاّ في الزّمان .. أي في حركة الزّمان.

الزّمان الذاتي والزّمان الموضوعي مجرّد فكرة لاتوجد إلاّ عبر إضافتها إلى الحركة... حركة الأشياء في المكان. أو حركة الشّعور في النفس...

إنّه ترتيب للحوادث وليس كياناً ذاتياً محضاً، إذ لايمكن أن يكون كذلك إلاّ الزّمان المطلق الّذي يمكن أن نقول عنه، بمعنى ما ، إنّه الأبديّة، أو الدهر الذي لايمكن إدراكه أو قياسه، وإنّما نكتفي نحن، في كرتنا الأرضية، بالحديث عن الزمانين النسبيين: العام والخاص، أي الموضوعي والذاتي وحسب. وإذا كان الزمان

الذاتي يأخذ منحى نفسيّاً، تبقى معالجته في إطار علم النفس وأمراضها، والمهم لنا – هنا – هو الزمان الموضوعي الذي يمكن أن نقيسه إلى الزمان الكوني العام، تَبَعاً للحركة، حركة الجزء الذي نعرفه من الكون، وبه يمكننا قياس الحركة من حولنا.

وإذا كنّا قد عرّفنا المتخلّف تعريفاً زمانيّاً بقولنا : إنّه إنسان تجاوزه الزمان، فهذا يعني أنّه مازال يعيش في الماضي غير مدرك أهميّة أبعاد الزمان.

أبعاد الزّمان (هنا) و (هناك)

وأبعاد الزّمان هي الماضي والحاضر والمستقبل.الماضي شيء حصل، والحاضر نتيجة له من جهة، وحامل للمستقبل في طيّاته من جهة أخرى.

ويمكن تشبيه الزّمان بنهر مندفع باستمرار من المنبع / المستقبل ، إلى المصب/ الماضي، مارّاً بالطريق الواصلة بينهما، أي بالحاضر الذي يتشكّل الآن وفق المصب والمنبع معاً، تَبَعاً لقانون الصّيرورة (Process) الذي يحكم الإنسان، والذي يجعل الحاضر لحظة تدحرج الزمان وحسب. ولا يمكن جمع لحظات الزمان الممتد في (الآن) إلاّ بحسب افتراض (لابلاس) الذي يرى أنه لو وجد من يعلم سرعة كل ذرّة ماديّة وموقعها في المكان المطلق والزمان الرياضي لأمكنه أن يرى ماضي الكون ومستقبله – هنا والآن. ولكنّ هذا الافتراض يقوم على مطلقات الماديّة الساكنة التي تخالف الصّيرورة.

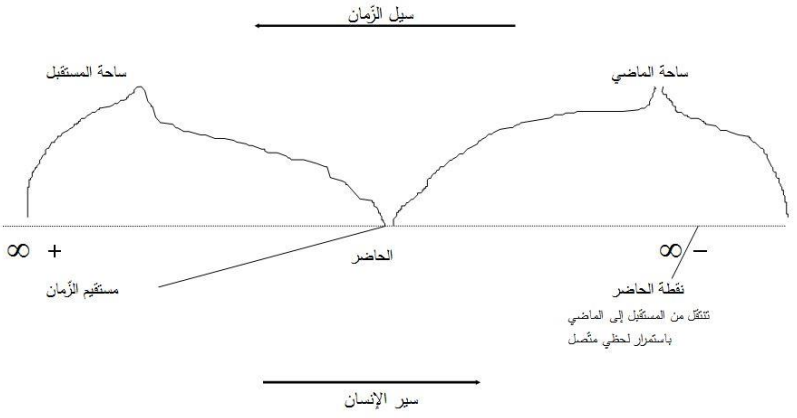

إنّ الوجود يتعيّن بالزمان: كان ... هو الآن... سيصير إلى ... وإذا كان الزمان يمر بالإنسان قادماً من المستقبل إلى الماضي، فإنّ الإنسان يمرّ بالزّمان من الماضي إلى المستقبل مروراً بالحاضر الزئبقي.

وهذا يعني أننا نخلّف الماضي وراءنا ونبتعد عنه كلّما أوغلنا في اللّحاق بالمستقبل القادم إلينا عبر نهر الزمان. فالماضي يتركني

أمامه ويبتعد عني بمقدار ابتعادي عنه، كلّما غززت السير باتّجاه المستقبل.

وهكذا فإنّ الإنسان كائن زماني يقوم بين ضفّتَي الماضي والمستقبل من غير أن ينتبه إلى زمانيّته. فالزمان لايلفت انتباهنا، لأنّنا نعيش فيه من غير أن نعيه، إلاّ إذا اصطدمنا بخلل ما في حياتنا اليوميّة.

وبما أنّ الزمان مستمرّ، والإنسان لايستطيع أن يتحرّر منه .. لذلك لايمكن تجريد الإنسان من لحظات الزمان المستمرة التي تقتضي التتابع(Successiveness) من المستقبل إلى الماضي، وكل ماعلى الإنسان فعله هو أن يتلقّى استمرار الزمان بالاتّجاه المقابل، أعني: من الماضي إلى المستقبل الذي يحمل التطلّعات.

إنّ الماضي والحاضر والمستقبل أبعاد تشكّل وحدة متكاملة، هي أكثر من مجموع لحظات، لذلك لايكون الزمان حاصل جمع أبعاده وحسب، إنّه هي وامتداده التكاملي المنساب. ولأنّنا لانستطيع التحرّر من الزّمان، نكون –بالضرورة – غير قادرين على التنصّل من مكوّناته النظريّة: الماضي والمستقبل واللحظة التي تفصل بينهما.

الإنسان يدرس لأنّه يتطلّع للنجاح... وهو يقدّم امتحان الشهادة الثانوية لأنّه حصل – في الماضي – على الإعدادية، ويريد – في المستقبل – حيازة شهادة جامعيّة .

ماأفكّر فيه دائماً إمّا هو ماضٍ أريد الإفادة منه في المستقبل، أو أرغب في إعادة قراءته من منظور جديد، وإمّا محاولة قراءة المستقبل لبناء تطلّعاتي بالاعتماد عليه.

وذلك كلّه من خلال الزمان الذي يتّصف بالديمومة (Duration) ، أي أنه لايمكن التفكير به بوصفه لحظات منفصلة، وذلك لأن الماضي ماضٍ، والمستقبل ماض، واللحظة لحظة، إنّها زمان، ولكنّها ليست الزّمان، أمّا الزّمان فهو هذه الصيرورة التتابعيّة المستمرّة من الماضي والحاضر والمستقبل، فهو كلٌّ متكامل. وزماني قائم فيَّ... أي تفكيك له هو تفكيك لشخصيّتي .. وتفكيك الزمان العام هو تفكيك للعالم، كذلك تفكيك أمّة أو مدينة ما، هو تفكيك لشخصيّتها المتكاملة.

عندما نقول (قبرص) فإنّ ذلك لايستدعي إلى الذهن ماكانت عليه وحسب، أو ماستكون فقط؛ بل نراها بوصفها كلاًّ متكاملاً ... ماكانت عليه بالأمس وما ستؤول إليه غداً بحسب السياق المنظور الذي تسير فيه.

فأنا لست ماكنت أو ماسأكون .. أنا كلٌّ متكامل، ماضياً ومستقبلاً، لايمكن أن أكتفي بالماضي وحده وأبقى ماأنا عليه. أنا البارحة غيري غداً، ولكنّني أتغيّر من دون أن أتخلّى عن كلّيتي.. أبقى أنا نفسي بكل مافيَّ من ماضٍ ومن تطلّعات مستقبليّة . أشبهك بوصفي إنساناً، ولكنّني لستُ أنت.

الأيّام كذلك تتشابه، لكنّها ليست نفسها، فهي متغيّرة.. كلّ يوم فيه ليل ونهار، ولا يحتمل أكثر من أربع وعشرين ساعة (حتى الآن)، ولكنّ البارحة هو غير اليومّ، بالرّغم من التشابه بينهما.

إنّ التشابه ينبع من نظرتنا (الكميّة) إلى الأشياء ممّا يجعلنا نكشف وحداتها المتجانسة (Homugeneous) ، أما الاختلاف فهو نظر في (الكيفيّة) التي تفرّق بين أشياء متجانسة كميّاً ليتّضح تباينها.

وهكذا فإنّ ديمومة الزمان – بأبعاده المتجانسة – تغيّرنا من دون أن تنقطع الصلة بين الماضي والمستقبل. والانتحار – الفعل الوحيد الذي يتيح للمرء التخلّص من وطأة الزمان – يدلّ على مدى تسرّب الزمان فينا، بحيث لايمكننا إنهاؤه إلاّ بانتهائنا نحن أيضاً في اللحظة نفسها التي ننهيه فيها، وحتّى فقدان الذّاكرة لايقضي على الماضي بشكل كامل ونهائي، لأنّه يبقى شيء منّا يحمل توقيع الماضي عليه، كما أنّ كبت التطلّعات يقضي على

الأمل الذي به نستمرّ في دوّامة الحياة .. وهذا يعني أنّه لايمكن الاستغناء عنه ضفّتَي الزّمان: الماضي والمستقبل.

فأنا – الآن – أساوي ماضيَّ ومستقبلي معاً، ولا غنى لي عن أحدهما، بل لاأستطيع الاستمرار من دونهما باعتبار أنهما نقطتان في خطّ الزمان الذي لايمكن الاكتفاء بنقطة منهما لصنع مستقيم الزمان.

ولأنّ الزمان ديمومة، لايسمح بوجود مانسمّيه وقت الفراغ ... إنّه وقت لايوجد إلاّ في أذهاننا وحسب، ولا وجود له حتّى في حياتنا، لذلك تتّضح سذاجة السؤال: ماالّذي تفعله في وقت الفراغ ؟ إنّه سؤال يحمل جوابه في داخله : أسأم...

وقت الفراغ هو الوقت الّذي نشعر فيه بالسّأم.

أمّا ذلك الذي يحبّ المطالعة أو الرّياضة أو التنزّه في الأوقات التي يعدّها فراغاً فهو لايدرك أنّها ليست أوقات فراغ، بل هي أوقات مخصّصة لغير العمل اليوميّ الذي يقضيه المرء في الدراسة أو في المصنع. ووقت الفراغ، هو فقط الوقت الذي نشعر فيه بالسّأم، ولا نجد شيئاً نقوم به إلاّ التفكير بمرور الزمان من غير جدوى. ومن خلال هذه الديمومة نرى الأرض تدور بنا وتتحرّك

حول الشمس .. والشمس تدور حول مركز المجرّة ... المجرّة تتحرك بالنّسبة للمجرّات .

الكل – إذن – يسبح في الفلك، بطريقة متّسقة ومنتظمة، وإن تكن غير ثابتة.

بذلك يتم تغيّر في المكان عبر الزمان، ويتم تغيّر الزمان من خلال الحركة وتبديل المكان. مما يمكّننا من القول بأنّ التغيير يتمّ زمكانيّاً .

وبما أن لكلّ حركة محرّكاً يوجّهها ويمنحها سرعتها بالشّكل الذي يريده، كذلك فإنّ حركة الزمان تتعلّق بإطار مرجعي واحد ثابت ومطلق ومنتظم لانعلم عنه سوى أنّه هو الذي حدّد هذا النظام المتّسق للكون، وهو الذي يحتوي الزمان والمكان المطلَقين، وهو الذي مكّننا من تنظيم زماننا العام.

وبما أنّنا نعيش في الزمان، فنحن مؤطَّرون بين الماضي والمستقبل، ونقيس الحركة به. فنقول: إنّ بيروت تبعد ثلاثة أيّام عن غرناطة، أي أنّنا نقيس الحركة بالزّمان.

ولكنّ قياسنا – هنا – ناقص، لأنّنا لم نعيّن مقدار الحركة التي نقيسها بالزّمان، من حيث سرعتها: فهل تبعد ثلاثة أيّام سيراً، أم بوساطة مركب ما، وما سرعة المركب المستخدَم؟ فالقطار غير

الحافلة، والحافلة غير الطائرة. ولهذا يتعيّن علينا ، على العكس، قياس الزّمان بالحركة.

ونحن – غالباً – مانجيب عن المسافة بين نقطتين، إجابة زمانيّة لامكانيّة، فالمسافة بين حلب ودمشق للمسافرين في الطائرة هي نصف ساعة، وللمسافر في الحافلة خمس ساعات، وللمسافر بالسيارة الخاصّة ثلاث ساعات... وبذلك نكون قد قسنا الزّمان بالحركة، ولا أحد يجيب بأن المسافة هي /٣٦٠ كم/ إلا عندما يكون الموضوع متعلّقاً بدرس في الجغرافيا .

ولكنْ إذا كانت الحركة الّتي نقيس بها الزّمان نسبيّة، ينتج لدينا زمان نسبيّ أيضاً، ممّا يشكّل نقصاً في موضوعيّة قياس الزّمان بالحركة.

وللخروج من مطبّ القياس الناقص، يتعيّن علينا أن نضايف الزّمان والمكان إلى بعضهما. إنّ المكان ثلاثي الأبعاد ولكنّ الزّمان ذو بعد واحد، والمضايفة بينهما تمنحنا أربعة أبعاد نعبّر عنها بالزمكان.

الآن المخاتِلة

وإذا كان الفعل (كنّا) يحدّد لنا وجودَين: وجود مكاني (في مدينة كذا...)، ووجود زماني (في وقت كذا...)؛ فإنّ الوجود الثّاني هو في دائرة اهتماماتنا حين نفكّر في مسألة الزّمان.

وهذان الوجودان، في فعل الكينونة، يوكّدان مدى ارتباط الزّمان بالمكان في الكينونة نفسها، فـ (هناك) لها مدلولان مترابطان يشيران إلى مكان ليس هنا الآن، وإلى زمان ماضٍ أو مستقبل ليس هنا الآن أيضاً .

ويتبع هذا معنى إشارة (هنا) لتدل على مكان حاضر الآن، أو إلى مكان نكون حاضرين فيه الآن.

وفي حين تبقى (هنا) ثابتة نسبيّاً عندما تنصرف إلى المكان الثابت نسبيّاً ، تتحوّل إلى (هناك) – الماضي، حين تنصرف إلى الزّمان، لأنّه متحرّك يتبدّل من المستقبل إلى الماضي من خلال مروره بالآن في حينها، أو من خلال مروره بما نسمّيه (الزّمن العائم) – في لحظة التحقّق ذاتها التي تمرّ بها، أو تمرّ بنا، باستمرار، لتصل بين زمانين، أو بين لحظَتي الزّمان: الماضية والمستقبليّة، عبر

حدود الزمان التي تقع بين دفَّتَي الأزل والأبد، اللّذين تشكَّلا من خلال سرمديّة لازمن لها، أو تقع خارج حدود الزّمان الموضوعي.

ولأنّ الحاضر يتحوّل باستمرار، وه ونقطة الوصل في مستقيم الزّمان، ماضٍ – مستقبل، يمكننا وصفه باللّحظة الزئبقيّة أو الزّمن العائم الّذي يقفز من المستقبل إلى الماضي.

لهذا فإنّ ولاءنا المطلق للحاضر وحده يجعلنا في حالة ماضٍ يستغرقنا ويمنع تقدّمنا لأنّه يستبعد التطلّعات.

قد يحلو لبعض المفكّرين التأكيد على أن الحاضرين وحده هو الموجود: فالماضي كان، والمستقبل سيكون؛ ولا وجود إلاّ للحاضر. ولكنّ ذلك يوقعهم في مطبّ الثبات الّذي تنفيه صيرورة الحياة، فماذا نسمّيه ذلك الشيء الذي يخرج الآن من رحم الأم..؟

إنّها لحظة عائمة لأنّها حاضر غائم يعاني التحوّل اللحظي... كان جنيناً ثم أصبح طفلاً، فكيف نولي أهميّة لتثبيت لحظة جنينيّة لاتحمل سوى شرف انقلاب المستقبل إلى ماضٍ؟!.

وفي اللّغة العربيّة يُحدَّد الزمان بفعلين: الماضي– كنتُ، المستقبل – سأكون .

أما أكون (الآن) فهي حركة حاضرة خارج سياق الزّمان، لأنّها لم تتشكّل بعد، ولكنّها خرجت من دائرة إمكانيّات الفعل المستقبلي بمجرّد دخولها في وشك الفعل.

فالجملة : كنت أفكر في الزمان، تعني بأنّني قد فكّرت وانتهى الأمر بفعل مكتمل متحقّق ممّا جعل العمليّة فعلاً ماضياً .

وقولي: سأفكر في الزمان، هي جملة تقليليّة تعكس تطلّعاتي التي قد تتحقّق لتدخل في الماضي، وقد لاتتحقّق بسبب عائق ما ؛ وفي الأحوال كلّها تبقى فعلاً غير منجز مادامت في دائرة التّسويف.

ويمكن القول إن المستقبل هو الحاضر التالي، وبذلك يبدو أن جوهر الزمان يكمن في (الآن) بوصفه اللحظة التي تصل الماضي بالمستقبل، ولكنّها لحظة خادعة تنفيها الصّيرورة (Process) وذلك لأنّني حين أفكّر – الآن – في الزمان فهذا يعني إخراج الفعل من دائرة التطلّعات، في اللّحظة نفسها التي يكون الفعل فيها خارج سياق الزمان الماضي المنجَز.

فحين أفكّر في الزمان أكون في زمن عائم، ليس ماضياً بوصفه فعلاً منتهياً (حيث بالفعل actuality) ، وليس توقّعاً مستقبليّاً بوصفه فعلاً أتطلّع إلى تحقيقه (حدث بالقوة Potemitiality).

وفي هذه المرحلة الدقيقة يتصيّر الفعل في تدافع زمني تحقّقه اللحظة الفاصلة بين زمنين : تحقّق تواً (ماضٍ ينسلّ بشكل خاطف) وسيتحقّق توّاً (مستقبل مستعد للانقضاض بسرعة برقية ليذوب في الماضي عبر اللحظة (ميكروثانية) التي تفصله عنه) .

إنّ اللحظة تتشكّل من خلال موضوعها: أفكّر في تحريك يدي.. أحرّكها في المكان .. تنتقل الحركة من المستقبل إلى الماضي عبر لحظة افتراضيّة تتزامن وقيامي بالحركة قبل أن تنزلق إلى مصبّ الماضي. أي أنّ الانتقال من المستقبل إلى الماضي يتمّ عبر لحظة زمنيّة أقل ممّا يستغرقه قلمي للوصول إلى الأرض بفعل الجاذبيّة .

وبهذا المعنى يمكن الحديث عن فعل زمكاني.. الماضي (مكان) في الوراء، والمستقبل (مكان) في الأمام، أمّا اللحظة الآنيّة فهي مركز قياس البعد بين المكانين زمانيّاً، أو بين الزمانين مكانيّاً. وسنعود إلى معالجة هذه النقطة فيما بعد *، ولنبقَ الآن في (الآن).

---

* نلاحظ هنا، استشرافي المستقبلي (سنعود) الذي بَني على معطيات ماأُنجز توّاً .

الآن أشعر .. إذاً (الآن) موجود، لكنّه منفلت من الزمان، يلاحقنا فيه الماضي ويشدّنا بثقله، ونحن نحاول اللّحاق بالمستقبل الذي يغرينا بالانجذاب إليه.

إنّ ماأكتبه هنا الآن، مجرّد كلمات .. لها في ذهني معادل تصوّري، وأقدّر أنّك ستقرأ – مستقبلاً، في لحظة هي لديك – هنا والآن – ستقرأ كلمات تنقلك إلى عالم مليء بالتصوّرات الذهنية القريبة من تخيّلي الذي أعنيه حين أكتب..

إنّ فرقاً لابدّ أن يوجد بين ماأعنيه وما يصل إليك منه.. ولكنّنا – عموماً – سنتّفق على خيوط مشتركة توصل – نوعاً ما – المقصود منّي إليك..

وبالمقابل – ماهو هنا والآن لديك – عنى سابقاً هنا والآن لديّ، لكنّه – الآن – وفي ذهنك فقط هو (هنا) زمكانيّاً (spacetime) . والمادة المكتوبة (الحيّز في المكان)، هي التي تجعل الـ (هناك) – زمانيّاً، هنا – زمكانيّاً حيث توجد هي .

هذا في حين سأكون في هذه اللحظة – لحظتك هنا والآن، سأكون منشغلاً بشيء آخر لاعلاقة له بما أكتبه الآن.

و (هناك) أنت (الزمكانيّة) بالنسبة لـ (هنا والآن) لي، هي لحظة تخمينيّة تفكّر فيك كعنصر مستقبليّ للقراءة، وتتطلّع إليك مستقبليّاً راجية أن يلقى بعض ماأفكّر فيه قبولاً لديك .**

الحاضر نقطة نحدّد من خلالها مستقيم الماضي والمستقبل من وجودنا، تلكما اللحظتان الوحيدتان اللتان تحظيان بالانتماء إلى الزمان. إنّني موجود مؤطّر بين الماضي والمستقبل في الآن، ولكنّني دائم الهرب من الحاضر إلى ماضٍ أحبّه أو إلى مستقبل آمله. فالآن ليست سوى فاصل واصل بين الماضي والمستقبل، وهي ليست سوى شاهد على تحوّل المستقبل إلى الماضي، ولا يمكننا القبض عليها لملاحظة أثرها على ماضينا أو على مستقبلنا، لذلك يكون الاكتفاء بالحاضر وحده سقوطاً واستسلاماً للتيار السائد، والنظم التي تحكمه، والظروف التي تسيّره وتحيط به، بحيث نترك مستقبلنا لحزب أو جماعة أو شخص يسيّره كيفما يشاء ونحن نقبع في ظلّه باستسلام كامل نعاني من إرادة مشلولة.

** وهذا ينطبق على المكان أيضاً .. هناك شمال موضوعي يُعرف بالنسبة إلى الأرض، ويوجد أيضاً شمالي أنا حيث أقف وتبعاً لاتّجاهي الآن، فأقول عن الشرق الموضوعي إنه يقع على شمالي حين أكون متّجهاً نحو الشرق.

إنّ شخصاً ينتظر الحكم عليه / مستقبل، نتيجة أفعال قام بها في الماضي، يجلس مهدود القوى فور صدور الحكم عليه / ماضٍ، في حال إدانته بالتّهمة الموجّهة إليه.

إنّ كلمة (مذنِب) وحدها، تفصل بين التّهمة / الماضي، والإدانة / المستقبل الذي يتحوّل إلى ماضٍ، بحيث لو أنّ الرجل طلب فوراً خلاصة لسجلّه القضائي، يتلقّاه وقد تحوّل من غير محكوم إلى محكوم.

وهنا يكون الحاضر لحظة محوريّة تشكّل الغد بناءً على معطيات الأمس، من غير أن نتمكّن من إدراجها في حسابات أفعالنا، وإذا كان الحاضر يضفي على الماضي صبغة يريدها، فإنّه لايفعل ذلك إلا بناءً على تطلّعاته / المستقبل الذي يحدّد له الإضافة اللاّزمة لتحقيق التطلّعات.

عندما نقول كلمة فإنّها تصبّ في الماضي ونصبح مسؤولين عنها وخاضعين للمحاسبة عليها.. فقط لأنّها أصبحت ماضياً لايمكن تغييره .. ولكنّه يؤثر فينا، ويمكن تفسيره، وإعادة إنعام النظر فيه من أجل المستقبل. أمّا الحاضر فلا أحد يحاسبني عليه إلاّ بعد أن يتحوّل إلى ماض. إنّ سائقاً تواجهه إشارة مرور حمراء وهو في طريقه إلى موعد يكاد يفوته، يفكّر في تجاوز الإشارة، لكنّه قبل أن

يفعل ذلك – أي قبل أن يجعل فعله ماضياً ، يفكر في نتائج هذا العمل مستقبلاً .. وهو إذ يفكّر في ذلك فإنّما يفعل بناءً على خبرة سابقة / ماضٍ أتاح له فرصة التعرّف على الممكنات الّتي يواجهها في المستقبل.

وهنا تكون اللّحظة المحورية – الحاضر– التي تفعل للغد بناءً على معطيات الأمس، خارج دائرة الزّمان الذي نفكّر فيه.

الأمر المنطقي هو أنّ حركتنا تنزلق دائماً من المستقبل إلى الماضي ونحن في طريقنا إلى المستقبل دون أن نلبث في الحاضر. لكنّنا ، فعليّاً، نثبّت اللحظة – الحاضر .. ونعيش على مدى ساعات أو أيّام أو شهور في لحظات متتالية ندعوها الحاضر الذي نهتمّ به .. وكلّ لحظة مستقبليّة قادمة إلينا ندعوها حاضراً ونهتمّ بها ونحن نغض الطرف عن الماضي أو المستقبل ولا نفكّر فيهما إلاّ لماماً .

ولكنّنا – بطبيعة الحال – نفكّر في الجملة التي سنكتبها لاحقاً وفي الحركة التي نودّ القيام بها بعد قليل..

عندما يخزِني صديق برأس دبّوس ... / فعل ماضٍ. أستجيب بتحريك يدي في الحاضر.. ثم مايلبث أن يصبح فعلي

هذا ماضياً ... أفكّر لحظة في هذا الماضي الذي حدث ومعناه ... ثم أفكّر بفعل مستقبلي للردّ عليه ...

وإذا كان صحيحاً أنّني أكتب الآن، لكنّه صحيح أيضاً أنّني لاأكتب لـ (الآن).

أكتب الآن وأنا متحرّر من الزمان، لكنّني أعانيه عبر محورَي: الماضي والمستقبل معاً.

فكيف أحرّر هذا من ذاك، أو كيف يكون التأثير المتبادل بينهما ؟

ذلك لايمكن أن يتّضح إلاّ بعد التعرّف على كلّ منهما أوّلاً.

الماضي لايعود ... ولا يموت

الماضي شيء حصل في الزمان، لكنّه ليس الشيء الذي مضى وانتهى أمره، بل هو ذاك الذي دخل في زمن سابق، وأصبح متحقّقاً على نحو فعلي، بعيداً عن احتمالات الاختيار التخلخليّة. ولكن، هل يمكن أن نطمح لمعرفة حقيقة ماجرى فيه، بعد أن أمسى وراءنا ؟

لقد كان هدف (رنكه) الأساسي من التاريخ هو اكتشاف (ماحدث حقّاً) في سياقه الزمني، وإذا أردنا أن نفكّر في مايعنيه ذلك الماضي لنا فهذا شأن آخر.

إنّ اكتشاف ماحدث حقّاً أمر غير ممكن، وكلّ مانستطيعه هو أن نتأكّد من الوثائق ومن الظواهر الّتي بين أيدينا، وأن ندقّق – ما أمكن – في معقوليّة الذكريات التي ينقلها لنا أناس عاصروا الحدث أو سمعوا به بالتواتر، وأن نكون على معرفة دقيقة بمستويات الوعي لديهم.

إنّ فحص الخبرات أمر مهمّ في مجال استجواب أناس رأوا الحدث الذي مضى، لأنّه لايمكننا أن نخاطب الطفل وحامل

الثانوية العامة والأساتذة الجامعيين بمفردات واحدة، كما لايمكن أن نتحدّث إليهم بموضوع واحد... ولا بد إذاً من مخاطبة كلّ إنسان وفق معرفتنا لماضيه المعلَن...

وكما أنّه لايمكننا أن نسأل نسّاجاً عجوزاً عن الزاوية التي انطلق منها شهاب رآه ينطلق باتجاه الأرض، كذلك لايمكن أن نحدّث الطفل عن آلية الحيض والتحوّلات التي تحدث في جسم المرأة أثناء الدورة الشهرية.

كما أنّ حامل الثانوية لايسعه التمييز بين الرسالة والأطروحة، ولا فرق لديه بين الطرح والأطروحات والأطاريح ...

وهذا التفريق في لغة الحديث وموضوعه بين كلّ منهم لن يمكننا إحداثه إلاّ عبر خبراتنا الماضية عن الخبرات الماضية لكلّ منهم ... هنا تكمن أهميّة الماضي ...

لنفترض أنّنا ركبنا حافلة ما، ووجدنا على الكرسي ورقة تضمّنت حلاًّ صحيحاً لتمرين ذي حدود ثلاثية بطريقة الإتمام إلى مربع كامل.

لن يلفت ذلك انتباهنا. فإذا دخل طفل لم يتجاوز العاشرة ومدّ يده ليأخذها... لن نستغرب ذلك أيضاً. ولكن لنفرض أنّ أحد

جلساء الحافلة كان فضوليّاً لدرجة أنّه سأل الطفل عن صاحب الحلّ، وإذا ابتسم الطفل قائلاً :

أنا أحبّ التسلية الرياضيّة ...

قد لايصدّق الفضولي ذلك فيدفع له بتمرين، طالباً إليه أن يحلّه بطريقة مباشرة :

$س^{٢} - ١٠ س + ٢١ = ∴$

فإذا أجابه الطفل (س – ٧) (س – ٣)

حينذاك لابد أن نبدي اندهاشنا ويُصبح للحلّ قيمة مضاعفة ... وما هذا إلاّ لأنّه حديث السن ... أي أنه يعيش مرحلة الطفولة، وهذا العمل بالنسبة إلى تلك المرحلة يُعتبر فوق العادي ... هنا نكون قد عرفنا ماضيه.

ومن هنا الماضي نتّخذ موقفنا – المستقبل، ثم يختلف موقفنا حين ندرك الماضي بأبعاده الكاملة : الفعل، ومن قام به، وماضيه ... كلّ ذلك يؤثّر على موقفنا – المستقبل .

عندما نعثر على ورقة تحمل عبارة (الدرس بحفنة من القمح) لابدّ أن تصيبنا الدهشة من هذا المعلّم المتواضع ... ولكنّنا إذا عرفنا أن تاريخها يعود إلى خمسمائة سنة قبل الميلاد، وأنّ كاتبها

هو (انكساغوراس) .. لابدّ أن يأخذ تفكيرنا مجرىً آخر، وأن يغدو شعورنا مختلفاً إزاء ذلك .

ونحن لانستطيع إعادة الماضي لاختياره أو للاستفادة منه، لكنّنا نستدلّ عليه من الذاكرة أو من الوثائق وآلات التسجيل المتوافرة لدينا .

وإذا حاولنا استرجاع الصّوت أو الصّورة من الماضي، بعيداً عن آلات تسجيل الصّوت والصّورة، نتوصّل إلى استحالة لمّ البعثرة في وسط تداخل لايمكن تصوّره عبر العصور .

إنّ الصوت الذي يتلقّاه جهاز الإرسال في الإذاعة، يتحوّل إلى موجات كهرومغناطيسية تسير بسرعة الضوء، ثم تعود فترتدّ إلى موجات صوتيّة في جهاز الاستقبال وهذا يعني أنّنا قد حوّلنا (الكيف) إلى (كم) ممّا أتاح لنا تحويل الصّوت إلى موجات، ثم إعادتها إلى صوت مرّة أخرى، من خلال ربطها بالضوء. فالصّوت موجات ذوات أطوال معيّنة رُبطت بسرعة الضوء مما أمكن تحويلها إلى كم. لكنّ هذا الترتيب النَسَقي للصوت في متّصل زمكاني متجانس، غير ممكن إذا كان البعد الزماني أو المكاني شاسعاً عن الصّوت الذي نريد إيصاله، ومن ذلك .. الصّوت الذي انطلق منذ سنين / بُعد زمكاني / لايمكن استرجاعه لأنّه اختلط بسواه عبر

مروره بالزمن، ومحاولة استرجاعه لاتقدّم لنا سوى تشويش غير مفهوم. والصّور التي نراها متحرّكة في (التلفزيون) لايمكن أن تُدرك مالم تتحرّك بسرعة تتناسب وقدرة العين على استيعابها، فلا بدّ من زمان معيّن لتحريك الصّورة كي نراها بوضوح ... أمّا إذا تقطّعت الحركة عبر بطئها، تفقد الصّور معانيها المتسلسلة .

وهذا يوضّح أهميّة الزمن التتابعي ومدى قرب الماضي أو المستقبل من اللحظة التي ننطلق منها باتّجاه المنحيَين من غير أن نعدّهما شيئاً منفصلاً لاتجانس فيه.

إنّ الأفكار التي نستعيدها من خبراتنا الماضية هي مخزون الذاكرة * . أمّا عندما نبتعد عنها زمانياً فلا يبقى منها سوى خيال، أي ذاكرة ضعفت وغمضت بسبب البعد الزماني، مما يجعل عملية ترميمها، بما يحلو لنا من إضافات، أمراً لايمكن تجنّبه. وبالتّالي فإنّ مانحرزه ليس سوى الانطباع المتبقّي من حادثة سابقة.

وهذا يؤكّد أنّ الماضي (الزمكاني) لايمكن أن يُستعاد، وإذا افترضنا – جدلاً – بإمكانية العودة إليه، لن نستطيع الإقامة (هناك) سوى لحظات. وينطبق الأمر نفسه – في المستوى النظري – على

* الذاكرة شيء لايماثل دقّة المذكرات التي كُتبت في الماضي القريب للحدث.

المسافرين في رحلة الزمان التي نظمها عام ١٨٩٥ (هـ . ج. ويلز (H. J. Wells) في روايته (آلة الزمان (The Time Machine) .

فالمسافر عبر آلة الزمان، إلى الماضي، سيدهشه تخلّف النّاس وتمكّنهم من العيش في غياب الطّائرات والمحطّات الفضائيّة والحواسيب ... كما أنّه سيمتعض من سذاجة العواطف الإنسانية التي يتبادلها البشر. والعائد من الرحلة، قبل أن ينفض عنه غبار السفر، سيقدّم بياناً ختامياً لرحلة ويلز، يبدي فيه استياءه من الإقامة (هناك).

ولكنّ (ويلز) يخفّف وطأة السفر بإعلانه أن السّفر في الزمان مَلَكة ذهنية وسحب.

فإذا تخلّينا عن الإخراج السينمائي للخيال العلمي، يمكننا القول إنّ رحلة (ويلز) عودة إلى ذكرى ماضيه بتركيز شديد، بكلّ مايحمله التخيّل من عناصر الزخم وقوّة الانفعال والتوهّم. وذلك كلّه لايُخرجنا من السّنة ولا من السّاعة أو الدقيقة التي نحن فيها .

وإذا كانت الرّحلة بالاتّجاه المعاكس، ستكون حينذاك – استشفافاً – للمستقبل انطلاقاً من معطيات الماضي نفسه، حيث يتصوّر المرء كيف سيكون الغد بالنّسبة إليه.

إنّ آلة الزمان توجد في أذهاننا فقط ... بالفكر –وحده– يمكن أن نعود إلى الماضي مئات السنين... وإلى المستقبل مئات السنين... عبر الخيال... وبثوانٍ فقط... بينما حركتنا الجسميّة تقاس بالزمان وتستغرق مدداً عامّة متعارَف عليها ... للوصول إلى مدينة ما .

فأجسامنا تسافر في المكان عبر زمنٍ عامّ، بينما تسافر أفكارنا في الزمان بلا زمانيّة محدّدة ... وهي، في العموم، لاتستغرق دقائق، إلاّ في الحالات المَرَضيّة التي ننكفئ فيها إلى الماضي، أو نحلّق بأوهامنا إلى المستقبل.

وللدلالة على أنّ الماضي لايعود كما هو تماماً، ولا يموت بشكل يُحدث قطيعة بينه وبين المستقبل، نستعيد نتائج إحدى تجارب عالم انكليزي :

في عام / ١٩٢٨ / درس العالم الإنكليزي (بول ديراك) حركة اليكترون وحيد في الفراغ، وكشفت إحدى معادلاته عن إمكان وجود الكترون ذي زمن معكوس، أي أنّه يسير إلى الوراء عكس الزمن، كما أنّ الطّاقة التي تحرّكه سالبة. وهذا يعني أنّ الجسم المدفوع سيتحرّك إلى الجهة الدافعة وضد قوانين الحركة السائدة.

ولأنّ معادلته صحيحة ولا غبار عليها، يمكننا أن نتأمّل تطبيقها في المجال الإنساني، فإذا أتيح لك تناول حبّة مركّزة من تلك الاليكترونات ذوات الزمن المعكوس، يصبح بوسعك أن تسير من المستقبل إلى الماضي بمعدل السّرعة ذاتها (على اعتبار أنّ المعادلة لم تتحدّث عن تغيّر في السرعة واكتفت بمسألة السير المعكوس) أي أنّ الغد يمسي اليوم، وبعد غد يمسي الأمس، وهكذا ...

وفي تلك الأثناء يصبح بمقدورك (أقصد / يمضي) أن تتخلّص من كلّ الآلام والأمراض التي تلبّستك عبر الزمان، فتكفّ يده تدريجيّاً وتمحو آثاره عن جسمك وروحك معاً ... وتتّجه بتؤدة إلى الطفولة ...

صحيح أنّه يتوجّب عليك – آنذاك – أن تتخلّى – أيضاً – عن كل معلوماتك، وتعود إلى مقاعد الدراسة لتتحمّل دروس الحساب مرة أخرى، تماماً كما تتحمّل ذلك الغليظ الذي يجلس خلفك ويحلو له أن يعبث بياقة قميصك. كل ذلك معقول ومقبول ...

ولكنّ اللحظة الحاسمة التي تواجهن بعد ثلاثين أو أربعين عاماً، هي كيف ستتمكن من العودة إلى المرحلة الجنينية مرة أخرى ؟

بل إنّك – أيضاً – ستغدو (ستمضي) أصغر من أحفادك، وقد لاتجد أحداً من أبنائك على قيد الحياة آنذاك.

وهناك مشكلة أخرى لم تكن في الحسبان، وهي أنّ هذا الاليكترون، ذي الزمن المعكوس، تحرّكه طاقة سالبة، مما يعني أنّ (حبّة الالكترونات المعكوسة) ستجعل من يتناولها يسير بحركة معكوسة أيضاً : فيرجع إلى الوراء حين يريد أن يسير إلى الأمام ... ويبعد فمه عن الكأس حين يريد أن يشرب ... ويوقظ نفسه حين يريد أن ينام ... وهكذا ...

ولكنّ (ديراك) نفسه يقدّم لنا حلاً لتلك المشكلة : فالاليكترون والاليكترون المعكوس إذا تقابلا تكون نتيجة ذلك أن يتخلّيا عن تجسيدهما المادي وينطلقا على هيئة موجات كهرومغناطيسية خارج الزمان والمكان معاً.

فهل هذا يعني أنّنا مجموعة من الاليكترونات اللامعكوسة، وحين نلتقي بأشباهنا المعكوسة يحدث شيء نسمّيه (الموت) ؟

ربما يكون هذا التفسير معقولاً، خاصّة إذا علمنا أنّ الشاب الإنكليزي (بول ديراك) لم يكن مجنوناً، وأنّ معادلته الغريبة التي عدّها زملاؤه من المعادلات الخياليّة المسلّية، أكّدها ثلاثة من العلماء بعد أربع سنوات من إطلاقها، إذ اكتشفوا أنّ للاليكترون الذي نعرفه اليكتروناً مناقضاً ظهر على الألواح الحساسة ثم تلاشى، في لحظة خاطفة، عندما قابل الاليكترون الذي يدخل في تكوين ذرّات عالمنا، وانتقلا – عند اللقاء – إلى صورة موجيّة بعد أن حقّقا لديراك جائزة نوبل عام / ١٩٣٣ / .

وهكذا نتحوّل نحن، من عالمنا المادي، إلى موجات تستطيع التخلّص من عبء الزمان، عندما نصل بمستقبلنا إلى خطّ النهاية، ويغدو التساؤل المربك (هل الزمان خطّ متّصل ينساب ؟) لامعنى له .

الماضي وجود تحقّق، والحاضر مستقبل ينتظر أن يتحقّق ليصبح ماضياً، إنّه لحظة يتجمّع فيها الماضي وتصوّر المستقبل، تجتمع فيها الذاكرة والإمكانيّة للاختيار بين ممكنات متاحة. لذلك لايمكن أن يموت الماضي فينا ... إنّ محاولة قتل الماضي دليل دامغ على وجوده فينا. وإذا حاولنا أن نفعل فإنّ ذلك سيكون بوحي منه، للتخلّص ممّا هو مقيم فينا .

يقول قيس بن الملوّح :

أُريد لأَنسى ذكرَها فكانّمَا

تَمثَّلُ لي ليلى بكلِّ سبيلِ

إنّنا نحاول أن ننسى مايلحّ على الذاكرة، أمّا إذا دخل دائرة (العدم) فلا مبرر حينذاك لمحاولة إعدامه.

نستطيع أن نعيد تفسير الماضي ... وتبديل دلالاته، ولكن لايمكننا أن نلغيه. هذا يتعلّق بطبيعة الزمان الذي يتمتّع بمسيرة لاتماثليّة (Asymmetric) فإدراك الماضي غير توقّع المستقبل. إنّ طبيعة معرفتنا للماضي تختلف عن طبيعة معرفتنا للمستقبل.

الماضي ليس نحن، وإنّما هو تاريخنا ... فينا جزء منه، جزء منا ولد فيه ، وجزء منّا يموت فيه .. نندم على جزء، ونفخر بجزء، ونريد تجاوز جزء، ونريد الاستفادة من جزء من أجل المستقبل.

أمّا الاكتفاء بالماضي وحده والتركيز عليه، فهو أمر ينفيه السياق الزمان، ويتّضح ذلك من خلال السؤال: هل يمكن أن نعيش اليوم بقانون حمورابي ونكتفي به ؟!

نحن لانستطيع أن ننفي استفادتنا منه، كما لايمكن أن نمنع أنفسنا عن الاستفادة من كل ماضٍ عشناه أو اطّلعنا عليه. ولكنّنا لايمكن أن نكتفي به في حياتنا الرّاهنة، بعد كلّ التطوّرات التي

أحدثناها عبر الزمان الذي يُصلح شيئاً ويفسد آخر، ونحن – بدورنا – نحاول التمسّك بالصالح، وبإصلاح مافسد على مرّ العصور.

وقياساً على ذلك فإنّ ماكنته يفتح أمامي آفاقاً للتحرّك وفق معطياته، باعتبار أنّ الماضي وجود تحقّق.

وحين أكون بلا خبرة أو شهادة في مجال محدّد، لايمكنني أن أفعل شيئاً قد أريده، بينما تفتح الخبرة أو الشهادة أمامي آفاقاً ممكنة (ومن ذلك قراري بالمساهمة في الحديث عن الزمان).

لايمكن لإنسان أن يعزف مقطوعة موسيقية مالم يكن قد تدرّب عليها، ولهذا نبقى محكومين – نوعاً ما – بماضينا ... أي بما كنّاه، لنتمكّن من فعل شيء ما في المستقبل.

وإذا افترضنا وجود ثقب في سقف غرفة، تتسرّب عبره قطرات ماء من صنبور الجيران المسافرين، فإذا كنّا نتمتّع بالصّبر والدعابة، نضع بيضة في ارض الغرفة بحيث تكون تحت الثقب بشكل عمودي، وننتظر ماذا سيحدث. إنّ الماء المتسرّب لابدّ أن يثقّب البيضة من نقطة الثِقَل التي يقع عليها، ولو بعد أعوام ... إنّ هذا يؤكّد أثر الماضي بالمستقبل، مهما تكن محدوديّة ذلك الماضي الذي قد لايلفت انتباهنا .

إنّ البحار التي تشكّلت منذ آلاف السنين، مازالت آثارها محفورة في الأرض، وكذلك الآثار الأركيولوجية تدلّنا على حضارات اندثرت ولكنّها ماتزال تسهم في إغناء مستقبلنا وتنوّع ثقافاتنا، حتّى بالمقدار الضئيل الذي وصل منها إلينا. و (الانفجار الكبير) الذي حدث في الماضي، هو سبب مانحن عليه اليوم / المستقبل .

أمّا أساليب حفظ بعض معطيات الماضي فهي تتيح لنا التعرّف بقوة على ماحدث، فكتب المفكرين المتوافرة، والتخزين عبر سلايدات الكومبيوتر وأشرطة التسجيل المرئيّة والمسموعة، كلّها تتيح مجالاً أوسع لمعرفة الماضي وتفسح مجالاً أقلّ لمسألة التخمين والتأويل. واكتشاف (حجر رشيد) خير دليل على تبادل التأثير بين الماضي والمستقبل.

فالحجر سجّلت عليه بعض اللغات القديمة، وحين فُكّت رموزُه ، تعرّفنا إلى أصول اللغة الفرعونية القديمة، واستطعنا أن نعرف تاريخ الفراعنة من خلالها. ولهذا أثره في فكرتنا المستقبليّة عن الماضي، فقد تغيّرت بعض آرائنا عنه، كما أنّ كشف الرموز يدلّ على أثر المستقبل في ذلك الماضي بالنسبة إلى حضارتنا الراهنة.

ومهما يكن دور الماضي في المستقبل، لايسمح لنا الزمان بالوقوف عند ماكان وانشغال أذهاننا به بشكل مَرَضي (morbid) . إنّ الانقياد للماضي والتمركز حوله يؤدّي إلى خلل في التعامل مع الزمان... إلى تجزيئه والاكتفاء بشريحة منه لاتفي بغرض التغيّر والتقدّم.

فإن نعي الماضي، غير أن نحاول عيشه ممّا يوقعنا في حفرة (الماضوية)، ويدفعنا إلى الاستسلام لسهولة الماضي، دفعاً للقلق، ونتيجة إدمان أفعالنا السابقة، وفقدان الأمل بالمستقبل.

وقد نحاول أن نوقف الفعل المستقبلي نتيجة إحساسنا بالذنب من الماضي المقترَف وخشية تكرار الارتجال، مما يحجب عنّا فضيلة توسّل الماضي وتَمثّله من أجل المستقبل.

المستقبل هو ماضي الماضي

المستقبل ماننتظر حضوره .. أو مانسعى إليه من أجل تحقيق غاياتنا. وهو التوجّه بالذّات نحو إمكاناتها (Abilities) وهو – وحده – الذي يجعل وجود الماضي أمراً ممكناً، وذلك لأنّ الزمان بُدء منه وهو في طريقه إلى تشكيل ماضي الكون، أو ماضي البشريّة، أو ماضينا نحن الذين نفكّر فيه بوصفه أملاً يحمل احتمالات (Probabilities) مختلفة، نحاول أن نشكّل أفضلها كي

نحسّن من وضع وجودنا في الزمان. ونحن – حين نعمل الآن – لانكترث للتعب لأنّنا نفكّر في ثمرات أعمالنا غداً .

ولكن لايمكننا أن نتصوّر المستقبل إلاّ وفق معطيات الماضي عبر خبرتنا الإنسانيّة فيه، ومن خلال الإمكانات المتعدّدة التي استطعنا نقلها من كونها رغبات إلى خانة الماضي المتحقّق.

فهل يمكن لإنسان أن يدّعي انصرافه عن المستقبل، كليّاً ؟

إنّ عمليات البيع والشراء، والتعامل مع البنوك بالأسهم المالية والقروض، واستعمال الثلاجة، ووضع أول لبنة في أيّ بناء، والانتساب إلى الجامعات، والخطط التي نضعها ونطمح إلى تحقيقها... كلّها معاملات مستقبليّة تؤكّد اهتمامنا به، وتبيّن مدى أهمّيته في صنع وجودنا، ويتّضح من خلالها الحيّز الذي يحتلّه المستقبل في تفكيرنا. وحتّى حين نعيد النظر في الماضي، أو نحاول استرجاع خبراته، يكون المستقبل هو هدفنا.

والمستقبل الذي نرنو إليه ونحن نتنقّل من هدف إلى آخر، يجذبنا إليه لأنّ توقّعاتنا لاحتمالاته المتعدّدة تترافق بترقّب مثير للاختيار بين الممكنات، فنلبث متربّصين بشغف ماالذي يخبّئه لنا الغد بين جناحيه.

ونحن حين نرتّب تطلّعاتنا ونسيّجها بأمل لاحدود له، نتأبّط فكرتنا عن أنفسنا لنوازن بين مانستطيعه وما نرغب فيه، كي لايشتطّ الحلم ونتصوّر أنفسنا في رحلة مجانيّة إلى المستقبل.

إنّ الرحلة إلى المستقبل تتمّ عبر الفكر، ومع ذلك، فهي بحاجة إلى بطاقة الإرادة في الانتصار على الذات.

ولا بدّ من التزوّد للرحلة بمعطيات علميّة تتكئ على خبراتنا الماضية، بعد تسليم القيادة إلى الخيال. بعد ذلك نستطيع أن نمتطي حصان التنبّؤ بالمستقبل واستشرافه، لنسافر في رحلة ذهنيّة لاتفصلنا عن ذواتنا، ولا تُبعدنا عن سياق الزمان بقفزة مميتة في الهواء [*] ، كتلك الّتي عانى منها (أهل الكهف).

في قصّة (أهل الكهف) توقّف الزمان الذاتي لديهم... ولم يتوقف الزمان الموضوعي، لأنّهم حين استيقظوا بعد ثلاثمائة وتسعة أعوام، كانت هذه الأعوام قد مرّت في الزّمان الموضوعي... أمّا هم فقد ظنّوا أنّهم لبثوا يوماً أو بعض يوم، ولم تجرِ عليهم التطوّرات التّي حدثت في العالم الخارجي عبر الزّمان.

---

[*] كالتي حققها (عباس بن فرناس) فأودت به .

خرجوا من سباتهم ووجدوا كل شيء قد تغيّر... النّاس والمباني والنّقود... ورأوا تبدّلاً في الطبائع والتقاليد وتنوّعاً في أساليب المعاملة، فأمسوا غريبين وقد مات أولادهم وأحفادهم ولم يبقَ لهم صاحب أو قريب. وحين شعروا أنّ الزّمان ليس زمانهم، اضطربوا ودهشوا وفزعوا حتّى الموت.

وممّا تؤكّده هذه القصّة أنّ الذّهاب إلى المستقبل بالقفز بعيداً في غفلة من الزمان، كالذّهاب إلى الماضي، أمر غير ممكن. ولكنّ إلغاء الرحلة زمكانيّاً (وبسرعة تفوق الزّمان الطبيعي) لايمنع من الذّهاب إلى هناك ذهنيّاً، ولا ينفي قدرة تأثير التفكير في الماضي، ليس من خلال تغيير ماحدث، إنّما من خلال تبديل معناه بالنّسبة لنا، بناءً على تطلّعاتنا التي تنطلق – أيضاً – من خبرة ماضية تعبّر عن تنامي فهمنا عبر الزّمان.

في المرحلة الابتدائية كان في صفّنا تلميذ نجيب سمه ذكي غشيم (Mr. Clever Stupid) كان مثار سخرية زملائه بسبب اسمه، ممّا شكّل لديه عقدة، وتصادف أن التقينا بعد أن تخرّجنا من الثانوية في حفلة تجمع الزملاء القدامى، وراح زميل قديم اسمه (أديب السيّد) يذكّره بالماضين فما كان من (ذكي) إلاّ أن ابتسم، ممّا أكّد على تخلّصه من العقدة، بسبب تحرير مستقبله من خلال

فهم جديد للماضي، وقال: ذكي غشيم، معادلة معتدلة، الغشم يذهب بالذّكاء، ولكنّ الذّكاء يذهب بالغشم أيضاً، ولكنّ المشكلة فيك أنت، فكيف يمكنك التخلّص من مأساة اسمك (أديب السيّد) (Mr. Polite Master) وأنت بهذه الوقاحة، وما تزال عبداً لشهواتك؟!

فالحدث لم يتغيّر، ولكنّ المستقبل جعلنا نبدّل معناه ونغيّر قيمته ونعيد تفسيره من جديد.

كما أنّ تطلّعاتنا تتيح لنا أن نُسقط على الماضي مانشاء، فنتذكّره وفق مقاييس آمالنا، وما نراه يناسبنا من أجل المستقبل. ونحن، إذا عرفنا ماضي كائن ما، وخصائص سيرته في الزمان، نستطيع التنبؤ بما قد يكون عليه في المستقبل.

واستشراف المستقبل أو التنبّؤ به، قد يأخذ شكل الحتميّة إذا تعلّق بحادث يرتبط بشكل مباشر بالعلّة والمعلول، كأن نعرف مستقبل صحيفة تُرمى في موقد تتصاعد منه النّيران، ومصير شخص يُمنع من التنفّس، ومآل قطّة تعمّد ساديٍّ حبسها دون شراب .

وبالمقابل، هناك أمور لانستطيع أن نجزم بمستقبلها، وتكون احتمالات تحقّق تنبّؤاتنا تجاهها متساوية الخطأ والصواب.

ومن ذلك التنبّؤ بالأحوال الجويّة، التي غالباً ماتُجانب الصواب [*] . وقد نتوقّع هطول أمطار كثيفة في سماء ملبّدة بالغيوم، فننصح أبناءنا بارتداء ثياب شتويّة مناسبة، واصطحاب مظلّة واقية، ثم نُفاجأ بعودتهم مساءً وعلى أيديهم نصف أحمالهم من الثياب، ونتشاغل عنهم حي لايحدّثونا عن نهار مشمس ودافئ لم يعكّر صفوه سوى الأحمال التي تكبّدوها نتيجة تنبّؤاتنا (المصيبة) [*] !

وقد نصل بتنبّؤاتنا إلى طريق مسدودة ممّا يمنع عنّا الاسترسال في تخيّل ماسيكون، فهل يمكن أن يَطال (الاستنساخ) الجنسَ البشري فنلتقي (بالسيد دوللي) وقد صنّع من نفسه عشر نسخ أخرى ؟!

وفي إحدى الإحصائيّات تبيّن أنّه يولد /١٥٠/ مليون طفل في كل عام، أي بمعدّل /٢٢٨/ طفلاً كل دقيقة، وتحدث الوفيّات بمعدّل /١٠٢/ إنساناً كلّ دقيقة، وهذا يعني ازدياد عدد السكّان بمعدّل (١٢٦) نسمة كل دقيقة، أي مايزيد عن (٦٦) مليون نسمة كل عام. في حين كان عدد سكان الأرض عند ميلاد المسيح أكثر

---

[*] على الأقل في إعلام شرق المتوسط.

[*] فاجعة، كارثة (Calamity) . وعكسها، الصائبة (right) .

من مائة مليون نسمة، وفي القرن السابع عشر أكثر من خمسمائة مليون نسمة. وفي العام (١٩٩٠) أكثر من ستة آلاف مليون نسمة، فكم سيكون عدد السكان سنة /٤٠٠٠/ ؟... هل يمكن أن يصل، وحسب نسبة الزيادة الحالية، إلى /٣٥/ وعلى يمينها /١٢/ صفراً؟... وهل ستستمر هذه الزيادة وبالنسبة نفسها، أم قد تأتي عوامل يبدأ، بسببها، عدد السكّان بالتناقص؟

الجواب غير واضح استناداً إلى المعلومات الحاليّة، وهذا يعني أنّنا كلّما بعدنا في الزّمان أصبح التنبّؤ أصعب. لقد كان عدد السكّان مليون نسمة قبل /٣٠٠ر٠٠٠/ سنة. ولكن كم كان عدد السكّان قبل مليون عام؟... لايمكن لأحد أن يجيب، ولا يمكن التأكيد بأنّ الزيادة ستبقى مطّردة. لهذا لايمكن أن نعرف عن المستقبل إلاّ القريب منه، قياساً إلى الماضي القريب أيضاً.

وهذا الغموض قد يكون مفيداً في أحيان كثيرة، لأنّ نقص المعلومات، وبعض النقاط الغامضة في أيّ مسألة نريد الإيغال في فهمها، تمنحنا فسحة من الحريّة للإبداع واكتشاف طرائق جديدة للتفكير، وقد تقودنا إلى مايشبه (حمّام) أرخميدس أو (تفّاحة) نيوتن.

وإذا كنّا نوافق (لافل) على ماذهب إليه في عبارته "الماضي هو مستقبل المستقبل" فإنّنا، من ناحية أخرى، نزعم أنّ المستقبل هو ماضي الماضي... إنّه الحدث الذي سيصبّ في الماضي فور تحقّقه، فالماضي، قبل أن يصير ماضياً، كان مستقبلاً. وهذا لايتناقض مع كون المستقبل ماضياً قبل أن يغدو مستقبلاً.

ولكنّ المستقبل البرّاق بغموضه المحبب، وتنبّؤاته التي تدفع الحضارة الإنسانيّة قُدُماً إلى ابتداع طرائق جديدة للعيش، وتأثيره الكبير على فهم الماضي؛ قد يؤدّي إلى خطر الغوص في النزعة المستقبليّة (Futurisme) ، أو المستقبلانية، التي تحاول اجتذاذ الماضي من جذوره .

إنّ التعويل على المستقبل بشكل مبالَغ فيه، كالتعويل على الماضي، ينفي فعل الذّات المتكاملة، ويوقف توجّه الإرادة الصحيح نحو الفعل، ويُغرق صاحبه في أمل متخيّل للإمكانات.

إنّ النزوع اليوتوبي (Utopian tendency) مؤذٍ، يتحوّل فيه الشّخص إلى كائن ينضوي تحت جناحَي رغبات خياليّة وهميّة تنفي إمكانيّة الفعل، لصالح حلم لانملك أدوات تحقيقه، منتظرين معجزة (Miracle) ، ولا نتّخذ خطوات عمليّة بهذا الاتّجاه، لأنّنا تخلّينا عن تجاربنا وخبراتنا (الماضي) وعن أوضاعنا وإمكاناتنا

الفعليّة التي صيَّرنا إليها ماأنجزناه، وهذا مانعنيه بالديمومة (في إحدى صورها) أي بقاء الماضي حيّاً فينا .

إنّ التنبّؤ بالمستقبل أمر ممكن حين يرتكز على معلومات قديمة تتيح إمكانيّة إحداث تغيّرات في المستقبل، أي إنّ إمكانات المستقبل هي محصّلة الماضي التي نبني عليها توقّعاتنا.

الماضي والمستقبل: بين التأثير والتحرير

إنّني أكتب وأفكّر الآن / الحاضر، بالزمان/ الماضي والحاضر والمستقبل، حاملاً معرفتي السابقة / الماضي وتطلّعاتي / المستقبل .. هكذا يبدو لنا الزمان في سياقه التتابعي الذي يحمل ديمومة لاتنفصم.

الماضي بمعرفته ينير الطريق نحو المستقبل، والمستقبل – حامل التطلّعات ينقد الماضي ويحاكمه بناءً على السياق التكاملي للزمان. ومن هذا المنطلق يكون التكفير إعادة نظر بالماضي ومحاولة تحسين صورته. ولأنّ (نوبل) لم يستطع التراجع عن اختراعه للديناميت، بيّن موقفه منه باستحداث الجائزة ...

ونحن – من خلال حياتنا اليوميّة – نلاحظ أنّ كثيراً من مشكلاتنا اليوم هي نتيجة قرارات غير صائبة اتّخذناها في الماضي، ممّا يؤكّد تأثير الماضي في المستقبل، وينبّهنا كي لانستمر في ممارسة تدهور منتظم يُبنى على أحكامنا المتسرّعة تجاه قضايا تحتاج إلى بُعد نظر نمارسه في اتّجاهين: الماضي والمستقبل. وقد

اقترح إريك فروم (Erick Fromm) في كتابه To Have or To Be (نملك أو نكون) أربعة حلول لتغيير الشخصيّة الإنسانيّة (المعاناة ووعيها، والكشف عن سببها، والتبيّن أنّ ثمّة مخرجاً، والقبول بفكرة أن التجاوز يلزمه طرائق جديدة للعيش)، ويتّضح من الفِقرات المطروحة أعلاه، أهميّة الزمان في سياقه العام : ماض وحاضر ومستقبل .

فإذا أردنا القيام بفعل يحمل رؤىً مستقبليّة، هل يمكننا التخلّي عن معطيات الماضي التي يمكن أن تدعمه ؟

عندما تريد مؤسّسة توظيف شخص ما، تنظر في شهاداته وخبراته / الماضي ، وتقيم له امتحان أو مسابقة / حاضر، وتنظر – بناءً على ذلك – أين يمكن أن يعمل ويكون مفيداً / مستقبل .

لكنّ تقديرنا لما كان لاينبغي أن يمنعنا من اتّخاذ موقف نقدي منه في ضوء قضايانا وتطلّعاتنا، لنجعل الماضي متفاعلاً مع مانريد، لا أن نجعل منه مجرّد مخزون في الذاكرة.

إنّنا حين نعي الماضي ونأخذ عنه، أو منه، أو به ؛ فإنّما نبدعه من جهة أخرى، نظراً لأنّنا (نحن) الذين نحييه، وبالتالي فإنّه يغتني بنا كما نغتني نحن به.

وكما أنّ كثرة التفكير في الماضي يمكن أن تنقله إلى حاضر، كذلك إطالة النظر في المستقبل قد توهمنا بأنه تحقّق وتحوّل إلى ماضٍ عشناه. لذلك تطلق الشركات التجارية أساليب متجدّدة في الدعاية، توهم بتحويل المستقبل إلى حاضر نعيشه : (أسهمنا ضمانة لمستقبلك) .

وكثرة الإلحاح والتركيز على هذه العبارة تحيلها إلى واقع متحقّق في أذهان الذين يتلقّونها باستمرار.

ولكنّنا كلّما أوغلنا في البعد – زمانيّاً – على نقطة الانزلاق (الآن)، تكون فكرتنا عن ضفّتَيه (الماضي– المستقبل) أضعف بنسبة البعد نفسها، وبالتالي، تغمض إمكانات معرفتنا الحقيقيّة عنه.

إنّ العوامل التي تؤثّر في الأرض تؤدّي إلى إبطاء سرعة دوران الأرض حول نفسها، ومن ذلك الاحتكاك بين غلاف الهواء والأرض، والمدّ والجزر الذي ينتج من جذب الأرض للقمر... وإبطاء الحركة ينعكس على إبطاء الزمان، وبعد خمسة آلاف مليون سنة سيصبح اليوم /٣٦/ ساعة بدلاً من /٢٤/ ساعة، هذه هي إحدى استشرافات العلماء للمستقبل.

ويمكن للعلماء معرفة عدد مرّات الكسوف والخسوف التي ستحدث على مدى سنين قادمة، مع تحديد المكان والزمان

والفترة التي يستغرقها كلّ منهما. وهذه المعرفة ممكنة بناءً على مانعرفه عمّا حدث في الماضي.

ويؤكّد العلماء أنّ كسوفاً طويلاً سيحدث في عام /٢١٨٦/ بجنوب المحيط الأطلنطي، حيث ستنكسف الشمس لمدة سبع دقائق و٢٨ ثانية في يوم ١٦ يوليو من ذلك العام.

كما أنّ مذنّب (هالي) الذي ظهر في الساعة التاسعة والنصف من مساء ٩ فبراير عام ١٩٨٦، سيعاود الظهور بعد ستّة وسبعين عاماً في المتوسط أي عام /٢٠٦٢/.

ولكن ماالذي سيحدث – حقّاً – بعد خمسة آلاف عام ؟

وهل ستستمر الحياة على الأرض في شكلها الحالي حتى ذلك الزمان ، أم أنّ انفجاراً كبيراً معاكساً تساهم فيه التقنيّات الحديثة سيطوي الزمان على الأرض؟ هذا مالا يستطيع أحد نفيه أو تأكيده.

وإذا شبّهنا الزمان بمستقيم (على طريقة جاليليو) يكون الحاضر نقطة توسّطية انطلاقية بالاتّجاهين من النقطة م (الحاضر)، نلاحظ أنه كلما ابتعدت عنها س (خط الماضي) أو ع (خط المستقبل) غدت الرؤية أقل وضوحاً وشمولية.

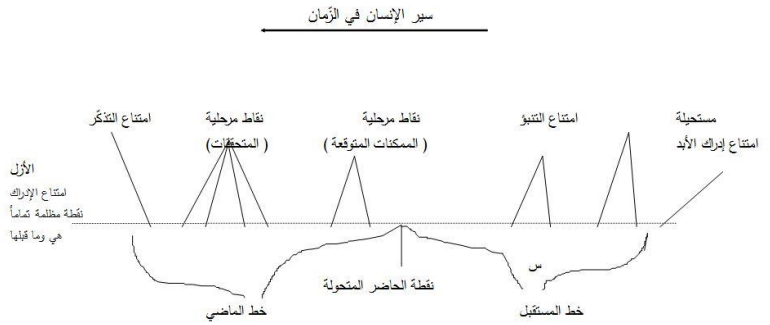

وفي الأحوال كلّها، هناك نقاط اللاّنهاية الّتي تشكّل بدايتها نقطة النهاية لأيّ إدراك أو تصوّر نملكه. وتبقى كلّ الحوادث الماضية المغرِقة في البعد، وكلّ الممكنات القادمة مع المستقبل البعيد، غامضة بالنسبة إلينا. ولا يلمّ بها إلاّ الله بوصفه المطلق.

وإذا حاولنا تمثيل ذلك على مستوى الشطرنج نجد أنّه يمكننا تحريك قطع الشطرنج في المكان الذي نريده وقت نشاء، وعلى شكل رقعة من اختيارنا، من غير أن تدرك الرقعة أوأيّ من

القطع، سوى أنّ هناك من يبدّل مواقعها في زمان يختاره ومدة يختارها ومكان من اختياره، وهي لاتعرف ماهيّة من يفعل ذلك، وإن كانت تدرك آثاره * .

إنّ منطقيّة اللعبة لاتتيح للقطعة الرابصة بالرقعة إلاّ أن تفكّر بانّ مدة تحريكها المتوازنة هي بضعة سنين من حسابها الخاص للسنة التي استوحتها من الرقعة، وكذلك لاتدرك سوى الرقعة مكاناً يمكن أن يحرّكها محرّك فيه ...

يمكنني أن أتحكّم بزمان النقلة من مكان إلى آخر... ويمكن أن أرمي بأيّ قطعة خارج الرقعة... والقطعة التي أنقلها إلى كرسي قريب ستظنّ أنّها انتقلت إلى عالم آخر لاتُدرك كنهه... ولا تستطيع العودة كي تحدّث زميلاتها عنه... وإذا شئت أن أدسّها في جيبي فستصير إلى عالم ظلمات لم تعهدها من قبل. وتكون قد انتقلت في زمان مطلق إلى مكان مطلق لم تستطع هي وعالمها إدراك أي شيء فيه.

وإذا استطاعت القطعة التلصّص على عالمي، ستقول لزميلاتها إنّها تعرّفت إلى كائن أكبر من المكان أو أنّه يعيش في

---

* تجاوزاً وعلى سبيل الافتراض.

اللامكان... ويكون ذلك كلّه بالنسبة إليها وإلى عالمها المحدود. وأكون – وحدي – العارف بزمانها المطلق، ماضياً ومستقبلاً .

وبالنسبة لنا، نحن الأرضيّين، لايمكننا التفكير في المطلق، مادمنا في حيّز البعد الإنساني زمكانيّاً داخل حدود جسد لايمكن اختراقه أو تجاوزه أو الخروج منه، والبقاء مع ذلك في حيّز الزّمكان.

الماضي لايعود... أو نحن لانستطيع العودة إليه... فالشيخ لايعود طفلاً... ولم نرَ حضارة عادت كما كانت، وإنشاء ساحة للشعراء تشبه سوق عكاظ لايمكنها أن تعيدنا إلى تاريخ مرّ منذ مئات السنين. لايمكن تكوين الظروف نفسها لنعيد الماضي بالدقّة التي كان عليها.

لقد طبع الماضي صورته في الكون، ولكنّ إمكانيّة إعادة الماضي بصورته الزمانيّة في وقته لايمكن أن تحدث إلاّ بشكل نسبي وجزئي، من خلال قراءة الأحداث الماضية عبر (التكهّن النفسي Psyhometry) ، والتخصّص الدقيق في تلك المرحلة. ماعدا ذلك، كلّ بقايا الخبرة من الماضي تؤثّر في المستقبل بطريقة ما.

ذلك المستقبل الذي لايمكننا استحضاره تماماً كما هو، أو كما سيحدث، وكل مايمكننا إزاءه، هو توقّعات تعتمد على الخيال والتصوّرات المضافة إلى فكرتنا عن الماضي.

نحن نتغنّى بالماضي ونترنّم به عندما نكون في حاضر سيّء .. أي في تصوّر مستقبلي قريب غير مشجّع... ولا نرى مستقبلاً منظوراً أفضل من الماضي... لكنّنا نترك الماضي مجرّد ذكرى نحاول نسيانها عندما نكون في وضع أفضل ممّا كنّا عليه... وإذا استطاع الماضي أو المستقبل الاستئثار بتفكيرنا، نجدنا نبعثر جهودنا للمصالحة بينهما، أو لفكّ الارتباط الذي لابدّ منه وذلك لأنّ الماضي يؤثّر في المستقبل، والمستقبل يغيّر انطباعاتنا عن الماضي... ونحن ننجذب إلى المستقبل عبر الزّمان، ولكنّنا – أيضاً – نحمل تأثير الماضي في ذلك الانجذاب. إنّ التراكم المعرفي شيء يتجمّع في مخزون الماضي الذي يُنجد المستقبل بتطلّعاته.

إذا اتفقنا أنّه لايمكننا أن نعود إلى الماضين لأننا نسير من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة... ولا يمكننا أن نعود إلى الماضي ونبقى في الحاضر لنرصد الماضي ونحن نحتفظ بأعمارنا

نفسها * ؛ ولا يمكن للزمان أن يعود إلى المستقبل من حيث جاء. فهذا يعني أنّنا نسير متعاكسَين ولهذا يبقى للزمان معنىً لدينا، حين يقف أحدنا يصبح الآخر أيضاً غير موجود بالنسبة إليه .

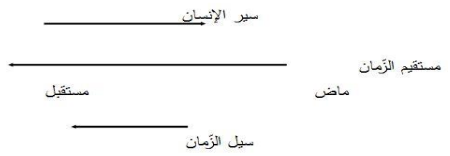

(الإنسان والزّمان متعاكسان)

* إلا رمزياً وذهنياً في لحظات تكثّف بقاياه .

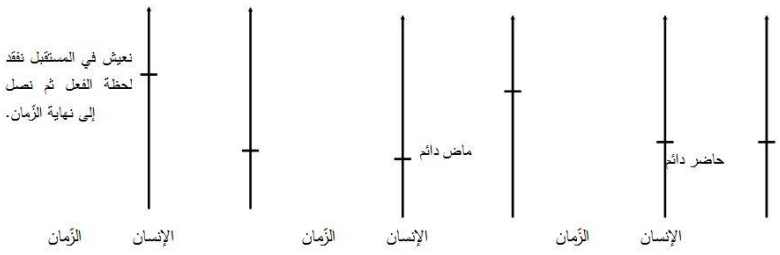

(افتراض السير مع الزّمان باتّجاه واحد)
مع اختلاف السرعة

الإنسان والزمان متعاكسان

كما يستحيل أن نسير مع الزمان باتّجاه واحد، فإذا سرنا باتّجاه واحد وبسرعة واحدة / أي بزمن واحد / سنبقى عند نقطة محدّدة منه هي اللحظة. فإذا سرنا أسرع منه تجاوزناه إلى أن نصل إلى نهايته، بوصفه زمناً موضوعيّاً محدوداً. وإذا سار أسرع منّا فإنّنا سنبقى غائصين في الماضي دون الحاضر أو المستقبل.

وبما أنّنا نخلّف وراءنا الماضي ونتّجه إلى المستقبل باستمرار يحوّله إلى ماضٍ، لذلك لايمكن أن نسير إلاّ عكس اتّجاه الزمان. والذي يقال عنه إنّه يسبق زمانه أو عصره، يكون – في الواقع – يسبق أقرانه وحسب... بالزمان الخاص، ولا مجال لمسابقة الزمان لأنّه يسير بعكس اتّجاهنا، وبسرعة موحّدة منتظمة. إنّ الذي أمامنا هو المستقبل، أما الذي أمام المستقبل فهو الماضي.

وللماضي دور أساسي في تشكيل المستقبل، من خلال رؤانا وإعادة تفسير ماحدث بناءً على طموحاتنا المستقبلية، وهذا يعني أن الزمان كلّ متكامل، وكلّما ازداد فهمنا لسياقه الاتّساقي، استطعنا الحصول على حياة متّزنة تستوعب استمراريّة التغيير.

ويحكي لنا فيلسوف الطاوية (لايهتسي) عن (عجوز فقد جواده وجاء الجيران يعزونه على مصيبته، فسألهم: كيف تعرفون أنّها مصيبة؟ وبعد أيام عاد الحصان ومعه جياد كثيرة، فجاء الجيران يهنّئونه على حظّه الجيّد، فسألهم: وكيف تعرفون أنّه حظّ جيّد ؟ وحين امتطى ابنه جواداً .. كُسرت ساقه، فجاء الجيران يواسونه، فقال: وما أدراكم أنّها مصيبة؟ وحين وقعت الحرب.. أعفي ولده من الجنديّة لأن ساقه مكسورة)...

إنّه عجوز يتمتّع بحساسيّة عالية تجاه الزّمان بوصفه وحدة تتابعيّة تتميّز بالصّيرورة، ولهذا يستطيع أن يفكّ الارتباط الاشتباكي بين الماضي والمستقبل، كما أنّه يستفيد من خبراته الماضية في استشراف المستقبل، ويعيد تفسير ماضيه من خلال استشرافه ذاك.

إنّنا بحاجة إلى التحرّر من وجود يرتكس إلى المستقبل وحده، بقدر حاجتنا إلى التحرّر من ماضينا بصيغته الماضويّة، لنستند إلى ذلك الماضي المعرفي الذي يشكّل حركة تطلّعنا نحو المستقبل.

ونحن نعيش حياة طبيعية، بقدر مانحترم الزمان بأبعاده المختلفة، بوصفه سيلاً تتابعيّاً يحمل وحدةً تُجانس بين لحظاته : الماضي والحاضر والمستقبل. وبقدر مانحترم أزمنتنا البيولوجيّة والذاتيّة، ونصرّ على التعامل مع الزمان الموضوعي من منطلقات تعي الاتّصال المنفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، ونتعامل معها وفق أسسها الخاصّة: الذاكرة والمعطيات السابقة، والتفكير العائم في الزمان، والخيال الذي ينتابه الفضول المعرفي ليكشف مايخبّئه الغد لنا. ونعني : الوجود بالفعل، واللحظة الانتقاليّة، والوجود بالقوة. ونحن نعيش حياة غنيّة وبقدر مانعمل للمصير، من خلال إمعان النّظر إلى الأمام محاولين تحقيق تطلّعاتنا.

إنّ اجترار الماضي بشكل دائم، والبكاء على أطلاله، أمر يشلّ فاعليّة الحركة ويقود إلى السير عكس قوانين التغيّر.

وهو – تماماً – كالاستسلام إلى أوهام وأحلام يقظة نبنيها فوق رمال متحرّكة بحيث تُحدث شرخاً سحيقاً بين تطلّعاتنا وإمكاناتنا.

إن القَبل (و) البَعد ضفّتا نهر، يصل بينهما الحاضر (AND) الواو، وهو الجسر الذي يشكّل نقطة انفصال لابدّ أن تعي الفرق بين ماكنته أمس وما سأكونه غداً، بالرّغم من أنّني – في نقطتَي الزّمان – هو هو الشخص الذي يفكّر في ذاته التي تسبر أغوار الزمان.

وتحرير القَبل من البَعد، على المستوى النظريّ التجريديّ، أمر مفيد كي نستطيع فهمه بتجرّد علمي يحوّله إلى كمّ رياضي يقبل التحليل المنطقي للأحداث. وإذا اعتبرناه زمناً ثابتاً لأنه منجَز، يمكننا الاستفادة منه في توجيه أفعالنا من خلال معرفة الإنسان العامّ، بوصفه نوعاً يتمتّع بطبيعة ثابتة (نسبيّاً) ، وتسير إلى مصيرها عبر الزمان .

كما أنّ تحرير البَعد من القَبل، نظريّاً، أمر يعين على التخلّص من شبهة آثام الماضي أو تصنيمه، كي نحافظ فينا على إدراك صيرورة الحياة التي تطلب التقدّم باستمرار.

وفي الحالين، يتمّ التحرير والتجريد من أجل مستقبل أفضل يتجاوز كلّ مامن شأنه تقزيمنا.

إنّ تحرير المستقبل يعني ألاّ نراه من خلال أمانينا الخياليّة وتطلّعاتنا البراغماتيّة وحسب.

وإذا تساءلنا عن فائدة التحرير وفكّ الارتباط بين الماضي والمستقبل، أو عن التأثير المتبادل بينهما، لن نجد سوى الهدف الأساسي يبرز بصيغته المستقبليّة. وحتى حين نعيد النّظر في الماضي، يكون المستقبل هو هدفنا.

* * *

مُخْرِج

بحسب التصوّرات الماضية عن المستقبل، افترض أجدادنا أن المدنيّة ستوفّر للإنسان مزيداً من الوقت، نتيجة زيادة تسهيلات المراسلات والاتصالات والعمل الالكتروني الذي يبدو سهلاً ولا يحتاج إلى وقت طويل أو جهد كبير.

ولكن يبدو أن ماقدّمته المدنيّة بيد، تأخذ ضريبته باليد الأخرى، حيث غدا الإنسان مشغولاً بهذه الأدوات الكثيرة المنتشرة للتسلية واللهو، حتى انقلبت إلى عمل روتيني غير مأجور، ولكنّه يشغل المرء عن التفكير بذاته...

لقد حمل المستقبل مع التقنيّات الحديثة مجموعة من المشكلات الجديدة، لم نكن نتوقّعها في الماضي.

ولعلّنا نستفيد من خبرة الماضي، إيجابيّاً، فندقّق في استشرافنا المستقبلي بعين علميّة لاتغرق في تفاؤل يفتقر إلى التسويغ. ولا نستسلم إلى الماضويّة أو المستقبلانيّة، كي لانعوم خارج الزمان الذي بدا لنا فكرة تتلبّس الحركة، كي تمنحها بعداً رابعاً يتّضح من خلال الوسط الذي تجري الحوادث فيه، بترتيب

تتابعي، يربط بين السبب والنتيجة؛ لذا يبدو كمّاً متّصلاً، لايمكن معه فصل الماضي عن المستقبل، كالمستقيم الذي لايمكن فصل نقاطه ويبقى مع ذلك مستقيماً.

ولكنّ التفكير الإجرائي يقتضي التجريد الذهني لتحليل الفكرة إلى عناصر جزئيّة من أجل فهمها بوصفها كلاًّ مركّباً لايقبل الانقسام.

ولأنّ الزمان مكانيّ الوجود، لايمكن التنقّل فيه بين الماضي والمستقبل، إلاّ عبر الذهن الذي يكثّف مدداً طويلة في لحظات يتجوّل فيها بين الماضي والمستقبل من أجل مستقبل جديد.

إنّنا نتحرّك في الزّمان، بينما نحرّكه في رؤوسنا ونحن نفكّر فيه ونستعيد بقاياه أو نتصوّر طلائعه القادمة من بعيد، في سياق منفلت من الزمان الموضوعي .

ومن خلال هذا التجوال يتبدّى الأثر المتبادل بين الماضي والمستقبل، من غير أن نتمكّن من استعادة أيٍّ منهما بالشّكل الذي يكون عليه. ولكنّنا – بناءً على معطيات الماضي – نستشفّ الآتي، كما نعيد النظر في فهمنا لما حدث استناداً إلى تطلّعاتنا المستقبلية.

الحدث المتحقّق يصبح في الماضي، والماضي لايتلاشى أو يقبع خارج مستقيم الزمان، إنّه يبقى (هناك) خلفنا، وإذا كنّا

لانستطيع العودة إليه، فإنّ ذلك لايمنع أن نلتفت إليه – من موقعنا ذاته – لنعيد التفكير فيه.

كما يمكننا – من موقعنا أيضاً – أن نمدّ نظرنا (عبر البصيرة أو الحدس أو الحاسة السادسة) إلى الأمام، لنحاول استشراف المستقبل، واختيار افضل الممكنات التي أتاحتها مسيرة الماضي عبر الزّمان.

وفي الأحوال كلّها، يبقى الماضي ماضياً موجوداً بالفعل، والمستقبل وجوداً بالقوة التي لاتصل إلى مرتبة التحقّق الحتمي، تماماً مثل كلّ التأمّلات التي حاولناها في مقالنا هذا.

إنّ أكثر اللّحظات كثافة التي ينتقل ذهننا فيها إلى أهمّ المحطات أو الصور في ماضينا، هي لحظة الاحتضار، حيث يتمّ تلخيص الوقت الطويل الذي عشناه، خلال ثوانٍ قليلة، ولكنّ خط المستقبل يكون قد نفذ من أمامنا بحيث لاتعود لدينا أدنى فرصة لتغيير المسار، ولم يعد بوسعنا سوى الاستسلام بهدوء لخدرٍ كسول ونحن نتحوّل إلى موجات تتخلّص من عبئها المادي.

وفي خِضَمّ الوقت الهائل الذي نقضيه عبر الزّمان، الذي لانرى قِصَره إلاّ عندما نجلس على حافّة المصير، ألا يحقّ لنا أن نتساءل : متى ينتهي وقتنا كي ننام ؟! ..

الفهرس

مقدّمة
تجلّيات الزّمان
أبعاد الزّمان (هنا) و (هناك)
الآن المخاتِلة
الماضي لا يعود ... ولا يموت
المستقبل هو ماضي الماضي
الماضي والمستقبل: بين التأثير والتحرير
الإنسان والزمان متعاكسان
مُخْرِج

تعريف فكري

السيرة الفكرية : محمد جمال طحان

*** دكتوراه في الفلسفة**

***عضو اتحاد الكتاب العرب- عضو اتحاد الصحفيين.**

***مدير تحرير مجلة(العاديات)-منذ تأسيسها عام ٢٠٠٤ حتى ٢٠٠٨.**

***مدير المركز الإعلامي لحلب عاصمة الثقافة الإسلامية٢٠٠٦.**

***المدير التنفيذي لمركز أبحاث أورينت - دبي ٢٠١٣- ٢٠١٤.**

*** مدير مركز أبحاث الوعد – عنتاب ٢٠١٥-٢٠١٧.**

*** ألقى العديد من المحاضرات وشارك في بعض الندوات الفكرية حول مسائل معاصرة في عدد من الدول العربية والإسلامية .**

*** نشر له ما ينيف عن ألف مادة بين الدراسة والنقد والقصة والشعر في الدوريات العربية المختلفة.**

*** أعدّ بعض البرامج الثقافية في إذاعة صوت الشعب من دمشق.**

*** نال بعض الجوائز المحلية والعربية، منها:**

– جائزة الباسل التي تمنحها رئاسة مجلس مدينة حلب عن مجمل الأعمال (عام ٢٠٠٠).

– الجائزة الأولى في الشعر في مسابقة محافظة حلب (عام ٢٠٠٠).

– الجائزة الثانية عن السيرة القصصية في مسابقة ثقافة الطفل العربي (أبو ظبي) (عام٢٠٠٠).

للمؤلّف

رقم	اسم الكتاب	نوع العمل	الناشر	عام
١	عشرة زمن يا آه	شعر	دار الثقافة (دمشق) نفد	١٩٨٥
٢	الاستبداد وبدائله في فكرالكواكبي	دراسة	اتحاد الكتاب العرب (دمشق) نفد	١٩٩٢
٣	مشاغبات فكرية	مقالات	دار سراج (بيروت) نفد	١٩٩٤
٤	الأعمال الكاملة للكواكبي	دراسة وتحقيق	مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) نفد	١٩٩٥
٥	على هامش التجديد (من الكلامولوجيا إلى التكنولوجيا)	دراسة	دار سراج (بيروت) نفد	١٩٩٦
٦	هكذا تكلمت حورية	مقالات	دار سراج (بيروت) نفد	١٩٩٧
٧	شرفات للجمر	شعر(بالاشتراك)	دار المرساة (اللاذقية) نفد	١٩٩٨
٨	صرخة الأسيان/ إضاءة كواكبيّة	دراسة	دار سراج (بيروت) نفد	١٩٩٩
٩	الحاضر غائباً (تأملات في الزمان)	مقولة	دار بترا (دمشق)	٢٠٠٠
١٠	أفكار غيّرت العالم	دراسة	دار الأوائل (دمشق) نفد	٢٠٠١
١١	أبو الضعفاء (عبدالرحمن الكواكبي)	سيرة قصصية	أبو ظبي نفد	٢٠٠١
١٢	اليهود والأوهام الصهيونية	دراسة	المكتبة الحقوقية (بيروت) نفد	٢٠٠٢
١٣	المثقّف وديمقراطية العبيد	أبحاث	دار الأوائل – (دمشق) نفد	٢٠٠٢
١٤	أم القرى	دراسة وتحقيق	دار الأوائل / نفد	٢٠٠٢
١٥	الرحالة ك طبائع الاستبداد	دراسة وتحقيق	دار الأوائل – (دمشق) نفد	٢٠٠٣
١٦	الخديعة الكبرى	دراسة	دار الأوائل – (دمشق) نفد	٢٠٠٣
١٧	امنحوني فرصة للكلام	مقالات	دار الأوائل – (دمشق)	٢٠٠٣
١٨	تيار الإصلاح الديني ومصائره	دراسة(بالاشتراك)	المعهد الفرنسي للشرق الأدني	٢٠٠٣
١٩	قراءات في الفكر العربي	دراسة(بالاشتراك)	مركز دراسات الوحدة العربية(بيروت	٢٠٠٤
٢٠	الشجرة المثمرة العالية	تحرير	دار بترا (دمشق) نفد	٢٠٠٤

٢١	الاستبداد في الوطن العربي	دراسة(بالاشتراك)	مركز دراسات الوحدة العربية(بيروت	٢٠٠٥
٢٢	عودة الكواكبي	دراسة	حلب عاصمة الثقافة الإسلامية نفد	٢٠٠٦
٢٣	الاستبداد وبدائله في الفكر العربي	دراسة	دار النهج(حلب)	٢٠٠٦
٢٤	الرؤى الإصلاحية عند الكواكبي	تحرير	اتحاد الكتاب العرب(دمشق)	٢٠٠٧
٢٥	الأعمال الكاملة للكواكبي	دراسة وتحقيق	مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) طبعة ثالثة	٢٠٠٧
٢٦	المثقّف وديمقراطية العبيد	أبحاث	دار صفحات (دمشق) طبعة ثانية	٢٠٠٧
٢٧	أم القرى	دراسة وتحقيق	دار صفحات (دمشق) طبعة ثانية	٢٠٠٧
٢٨	الرحالة ك طبائع الاستبداد	دراسة وتحقيق	دار صفحات (دمشق) طبعة ثانية	٢٠٠٧
٢٩	الخديعة الكبرى	دراسة	دار صفحات (دمشق) طبعة ثانية	٢٠٠٧
٣٠	الصورة الفنية في الشعر العربي	تقديم	دار صفحات (دمشق)	٢٠٠٨
٣١	حالات سريّة	مجموعة قصصية	وزارة الثقافة السورية (دمشق)	٢٠٠٨

عنوان المؤلف:

jamaltahhan@gmail.com

لو أنّ الإنسان، قبل أن يقوم بأيّ عمل، فكّر بالوقت اللازم لإنجازه، لأُصيب بالإحباط قبل أن يصنع ماصنع.